

تفسير السعدي

@ 493 @ ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) ^ أي : من فضل ربي وكرمه ، حصلت لي السلامة يوم ولادتي ، ويوم بعثي من الشر ، والشيطان والعقوبة ، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ، ودار الفجار ، وأنه من أهل دار السلام ، فهذه معجزة عظيمة ، وبرهان باهر ، على أنه رسول الله ، وعبد الله حقا . ^ (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربي وربكم فاعبدوه ه ذا صراط مستقيم) ^ أي : ذلك الموصوف بتلك الصفات ، عيسى بن مريم ، من غير شك ولا مرية ، بل قول الحق ، وكلام الله ، الذي لا أصدق منه قила ، ولا أحسن منه حديثا ، فهذا الخبر اليقيني ، عن عيسى عليه السلام ، وما قبل فيه مما يخالف هذا ، فإنه مقطوع ببطلانه ، وغايته أن يكون شكا من قائله لا علم له به ، ولهذا قال : ^ (الذي فيه يمترون) ^ أي : يشكون فيمارون بشكهم ، ويجادلون بخرصهم ، فمن قائل عنه : إنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم ، علوا كبيرا . ف ^ (ما كان الله أن يتخذ من ولد) ^ أي : ما ينبغي ولا يليق ، لأن ذلك من الأمور المستحيلة ، لأنه الغني الحميد ، المالك لجميع الممالك ، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولدا ؟ ^ (سبحانه) ^ أي : تنزه وتقدس عن الولد والنقص . ^ (إذا قضى أمرا) ^ أي : من الأمور الصغار والكبار ، لم يمتنع ، عليه ولم يستصعب ^ (فإنما يقول له كن فيكون) ^ ، فإذا كان قدره ومشئته نافذا في العالم العلوي والسفلي ، فكيف يكون له ولد ؟ وإذا كان إذا أراد شيئا قال له : ^ (كن ، فيكون) ^ فكيف يستبعد إيجاد عيسى من غير أب ؟ ! ! ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مريبوب كغيره فقال : ^ (وإن الله ربي وربكم) ^ الذي خلقنا ، وصورنا ، ونفذ فينا تدبيره ، وصرفنا تقديره . ^ (فاعبدوه) ^ أي : أخلصوا له العبادة ، واجتهدوا في الإنابة ، وفي هذا ، الإقرار بتوحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، والاستدلال بالأول على الثاني ، ولهذا قال : ^ (هذا صراط مستقيم) ^ أي : طريق معتدل ، موصل إلى الله ، لكونه طريق الرسل وأتباعهم ، وما عدا هذا ، فإنه من طرق الغي والضلال . ^ (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ل كن الظالمون اليوم في ضلال مبين) ^ لما بين تعالى حال عيسى بن مريم الذي لا يشك فيها ولا يمتري ، أخبر أن الأحزاب ، أي : فرق الضلال ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام ، فمن غال فيه وجاف . فمنهم من قال : إنه الله ، ومنهم من قال : إنه ابن الله . ومنهم من قال : إنه ثالث ثلاثة . ومنهم من لم يجعله رسولا ، بل رماه بأنه ولد بغي كاليهود . وكل

هؤلاء أقوالهم باطلة ، وآراؤهم فاسدة ، مبنية على الشك والعناد ، والأدلة الفاسدة ،
والشبه الكاسدة ، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد ، ولهذا قال : ^ (فويل للذين كفروا
(باٍ ورسله ، وكتبه . ويدخل فيهم ، اليهود والنصارى ، القائلون بعبسى قول الكفر . ^
(من مشهد يوم عظيم) ^ أي : مشهد يوم القيامة ، الذي يشهده الأولون والآخرون ، أهل
السموات ، وأهل الأرض ، الخالق والمخلوق ، الممتلئ بالزلازل والأهوال المشتمل على الجزاء
بالأعمال ، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون ، وما كانوا يكتُمون . ^ (أسمع بهم
وأبصر يوم يأتوننا) ^ أي : ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم ؟ فيقررون بكفرهم
وشركهم ، وأقوالهم ويقولون : ^ (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون)
^ ففي القيامة ، يستيقنون حقيقة ما هم عليه . ^ (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) ^
وليس لهم عذر في هذا الضلال ، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة ، عارف بالحق ، صادف عنه ،
وبين ضال عن طريق الحق ، متمكن من معرفة الحق والصواب ، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه
من سوء أعماله ، غير ساع في معرفة الحق من الباطل ، وتأمل كيف قال : ^ (فويل للذين
كفروا) ^ بعد قوله : ^ (فاختلف الأحزاب من بينهم) ^ ، ولم يقل (فويل لهم) ليعود
الضمير إلى الأحزاب ، لأن من الأحزاب المختلفين ، طائفة أصابت الصواب ، ووافقت الحق فقالت
في عبسى : (إنه عبد الله ورسوله) فآمنوا به ، واتبعوه ، فهؤلاء مؤمنون ، غير داخلين في
هذا الوعيد ، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين . ^ (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم
في غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) ^ الإنذار هو :
الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب ، والإخبار بصفاته ، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد ،
يوم الحسرة حين يقضي الأمر ، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد ، ويسألون عن أعمالهم ،
فمن آمن بالله ، واتبع رسله ، سعد سعادة لا يشقى بعدها ، ومن لم يؤمن بالله واتبع رسله شقى
شقاء لا يسعد بعدها ، وخسر نفسه وأهله ، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة ، تنقطع منها القلوب
، وتتصدع منها الأفئدة ، وأي : حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته ، واستحقاق سخطه والنار
، على وجه لا يتمكن الرجوع ، ليستأنف العمل ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعودة إلى
الدنيا ؟ فهذا قدامهم ، والحال أنهم في الدنيا في